الفصل الخامس

عصر الإمام سفيان الثوري

عاش الإمام سفيان الثوري ما بين عامي سبعة وتسعين وإحدى وستين ومائة هجرية، أي أنه عاصر نهاية الدولة الأموية ونشوء الدولة العباسية. فقد قضى الإمام الثوري نصف حياته الأول تقريباً تحت ظل الحكم الأموي الذي سقط سنة (١٣٢هـ) بأيدي العباسيين، الذين قضى معهم ما تبقى من حياته حيث وافته المنية في زمن خلافة المهدي. وهكذا يعتبر الإمام الثوري مخضرماً عاصر انهيار دولة ونشوء دولة، لقد تأثر بعصره وأثّر فيه وسيتضح ذلك من خلال الدراسة الآتية للعصر الذي عاش فيه هو الإمام حيث سنتناول ذلك العصر من الناحية السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعلمية، والدينية. ونبدأ بالحياة السياسية أولاً.

المبحث الأول: الحياة السياسية

اتسعت رقعة الدولة الأموية في الشرق والغرب في عهد الوليد بن عبد الملك[١]. أما في عهد سليمان بن عبد الملك[٢] (٩٦-٩٩هـ) فإنه لم يكن هناك من فتح غير بلاد جرجان[٣] وطبرستان[٤] على يد يزيد بن المهلب[٥][٦] أمير بلاد المشرق وحصار القسطنطينية[٧].

---

(١) الوليد بن عبد الملك (٤٨-٩٦هـ): من ملوك الدولة الأموية، امتدت في زمنه حدود الدولة العربية إلى بلاد الهند، فتركستان، فأطراف الصين شرقاً. (الأعلام: ١٢١/٨).

(٢) سليمان بن عبد الملك (٥٤-٥٩٩هـ) الخليفة الأموي. كان عاقلاً، فصيحاً، طموحاً إلى الفتح في عهده فتحت جرجان وطبرستان، توفي في دابقٍ. (الأعلام: ١٣٠/٣).

(٣) جرجان: من بلدان طبرستان. (معجم البلدان: ١٣/٤).

(٤) طبرستان: بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم خرج من نواحيها من لا يُحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه. من أعيان بلدانها دهستان، وجرجان، وآمل. (معجم البلدان: ١٣/٤).

(٥) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي (٥٣-١٠٢هـ) أمير من القادة الشجعان الأجواد، ولي خراسان سنة (٨٣هـ)، ولي العراق ثم خراسان زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك. (الأعلام: ١٨٩/٨-١٩٠).

(٦) البداية والنهاية، لابن كثير: ١٧٠/٩-١٧٥، الطبعة السابعة (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م)، بيروت - لبنان، مكتبة المعارف.

(٧) المرجع السابق: ١٧٤/٩ .

هذا إلى ما كان من إيثار بعض ولاة سليمان بن عبد الملك وعماله من النيل من البعض الآخر، ومن هؤلاء محمد بن القاسم في الهند، وقتيبة بن مسلم[١] في بلاد ما وراء النهر[٢]، وموسى ابن نصير[٣] في الأندلس، وأسرة الحجاج[٤] في العراق[٥].

وكان الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، الذي ولد في عهده الإمام الثوري، نهماً مغرقاً بالطعام والنساء، وقد دبّ الترف والبذخ في بلاطه، وتسرّب إليه الفساد فأكثر من الخصيان، وتعدّت هذه الرذائل إلى الولاة والأمراء.

أما في عام تسعة وتسعين للهجرة فقد تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز[٦] الذي يعدّ من أحسن خلفاء بني أمية سيرة، وأنقاهم سريرة، وأنزههم يداً، وأعفهم لساناً، وأسبقهم إلى نشر الإسلام وإعلاء كلمة الدين. وقد أصبح حكمه غرة في جبين ذلك العصر الذي تلطخ بالاستبداد وسفك الدماء، حتى لقد شبّه المسلمون خلافته بخلافة جدّه لأمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عدله وزهده.

وقد أدخل عمر بن عبد العزيز كثيراً من الإصلاحات التي كانت من مصلحة الإسلام[٧]؛ فقد رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، وخفف الضرائب عن عامة المسلمين وبخاصة الموالي من الفرس مما زاد من إقبال الناس على الإسلام[٨].

---

(١) قتيبة بن مسلم الباهلي (٤٩-٩٦هـ): فاتح نشأ في الدولة المروانية غزا أطراف الصين، عظيم المكانة، مرهوب الجانب، قتله وكيع بن حسان. (الأعلام: ٥/١٩٠).

(٢) ما وراء النهر: هي بلاد من خراسان، وهي بلاد الهياطلة، ولاية برأسها ويراد بها ماوراء نهر جيحون بخراسان. وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيراً. (معجم البلدان: ٥/٤٥).

(٣) موسى بن نصير (١٩-١٩٧هـ) فاتح الأندلس نشأ في دمشق. له وطارق بن زياد افتتاح ما بين جبل طارق وسفوح البرانس في أقل من سنة. (الأعلام: ٧/٣٣٠).

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠-٩٥ هـ): قائد، داهية، سفاك، خطيب، وكان سفاحاً. (الأعلام: ٢/١٦٨).

(٥) انظر المرجع السابق: ٩/١٧١-١٧٦ .

(٦) البداية والنهاية، لابن كثير: ٩/١٨٤ .

(٧) انظر البداية والنهاية: ٩/١٨٨ .

(٨) البداية والنهاية: ٩/٢٠٠ .

وقد قام بتنظيم حركة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة الإسلامية، وقدّم لأهالي البلاد التي فتحها العرب كل لون من ألوان الإغراء لقبول الإسلام وقال عباد السمّاك، وكان يجالس سفيان الثوري: «الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز»[١].

وكان عمر بن عبد العزيز غاية في النسك والصلاح والتواضع حتى إنه لم يكن للشعراء نصيب في بلاطه، وترك لعن علي رضي الله عنه على المنابر، وكان بنو أمية يسبونه.

وقد بلغ من زهد عمر أنه كان يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وتوفي سنة ١٠١هـ[٢].

وفي ذات العام ولي يزيد بن عبد الملك[٣] الخلافة، وقد اشتهر باللهو والخلاعة والتشبيب بالنساء[٤]. وفي أيامه ظهرت النفرة بينه وبين أخيه هشام لما كان من سورة يزيد ولما بلغه من أن أخاه هشام ينتقصه ويتمنى موته ويعيب عليه لهوه[٥].

وتوفي عام ١٠٥هـ وولي أمور الخلافة بعده أخوه هشام بن عبد الملك[٦]، وقد بادر هو والخلفاء بعد عمر بن عبد العزيز إلى فرض ضرائب فادحة لسدّ النقص الذي جرّته سياسة عمر إزاء الموالي وإعفائهم من الجزية، فقد فاجأ هشام الموالي بضريبة خراجية لا قِبَل لهم باحتمالها.

---

(١) البداية والنهاية: ٩/١٩٢ .

(٢) يزيد بن عبد الملك: (٧١-١٠٥هـ) من ملوك بني أمية، ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز، كان فيه مروءة كاملة مع إفراط في اللذات. (الأعلام: ٨/١٨٥).

(٣) البداية والنهاية: ٩/٢٣٢ .

(٤) البداية والنهاية: ٩/٢٣٢ .

(٥) هشام بن عبد الملك: (٧١-١٢٥هـ) من ملوك بني أمية اجتمع في خزانته من المال ما لم يجتمع في خزانة أحد من ملوك بني أمية. كان حسن السياسة يقظاً في أمره. (الأعلام: ٨/٨٦).

(٦) البداية والنهاية: ٩/٢٣٣ .

وفي سنة ١٢٠هـ ولّى هشام بن عبد الملك نصر بن سيّار[١] خراسان[٢][٣]، وكان أكثر الموالين للعرش الأموي كفاية، فاستطاع أن يوطِّد دعائم الحكم الأموي في بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٣هـ.

ومن إصلاحات هشام بن عبد الملك اهتمامه بتعمير الأرض وتقوية الثغور وحفر القنوات والبرك في طريق مكة[٤]، وفي أيامه ظهرت صناعة الخز والقطيفة، وكان هشام كلفاً بالخيل وهو أول من أقام لها الحلبات من الخلفاء، كما عني بعدَدِ الحرب ولامّتها.

ومما يؤخذ على الخليفة هشام بن عبد الملك إمعانه في الانتقام من العلويين والتنكيل بهم كلما أمكنته الفرصة. هذا إلى ما عرف عنه من الغلظة وخشونة الطبع وشدة البخل[٥].

وتوفي الخليفة هشام عام ١٢٥هـ[٦]، فولي الحكم الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك[٧] ولم يطل حكمه حيث قتل ١٢٦ هـ[٨]، وقد اشتهر باللهو والخلاعة[٩] والمجون، وكان هذا سبب قتله، وكان شاعراً مجيداً.

---

(١) نصر بن سيّار (٤٦-١٣١هـ): أمير ولي إمارة خراسان، غزا ما وراء النهر ففتح حصوناً. قويت الدولة العباسية في أيامه. (الأعلام: ٨/٢٣).

(٢) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وسجستان. (معجم البلدان: ٢/٢٥٠-٢٥٤).

(٣) البداية والنهاية: ٩/٣٢٦ .

(٤) البداية والنهاية: ٩/٣٣٨ .

(٥) البداية والنهاية: ٩/٣٥١ .

(٦) البداية والنهاية: ٩/٣٥٤ .

(٧) الوليد بن يزيد بن عبد الملك: (٨٨-١٢٦هـ) من ملوك الدولية المروانية، قتله عبد العزيز بن الحجاج. (الأعلام: ٨/١٢٣).

(٨) البداية والنهاية: ١٠/٦ .

(٩) البداية والنهاية: ١٠/٢ .

أما آخر خلفاء بني أمية فهو مروان بن محمد[1] الذي استمر حكمه حتى سقوط دولة بني أمية عام ١٣٢هـ وتَسلُّم بني العباس الحكم. وكان مروان هذا يلقب «بالحمار»[2] لأنه لا يفتر عن محاربة الخارجين عليه[3]، وقد اشتهر بالشجاعة والدهاء والمكر.

ثارت الفتن والقلاقل خلال حكمه فنشطت الشيعة في بث دعوتها التي قضت على البيت الأموي، ومما ساعد على سقوط الدولة الأموية أسباب نلخصها فيما يأتي:

١- تولية العهد اثنين[4]:

فقد لقي هذا بذور الشقاق والمنافسة بين أفراد ذلك البيت وأورثهم الحقد والبغضاء؛ فالوليد بن عبد الملك لما ولي الخلافة عمل على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها في ابنه عبد العزيز، وكتب بذلك إلى العمال فأجابه الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق وغيره، فلما ولي سليمان الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد انتقم ممن كان له ضلع في خلعه[5].

٢- ظهور روح العصبية:

لم تظهر روح العصبية في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز حيث لم يتعصب لقبيلة دون أخرى ولم يولّ والياً إلا لكفايته وعدالته، فسكنت في عهده الفتن التي كانت تنتاب الدولة وتكاد أن تذهب بريحها، فلما توفي عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك، فاستقبل خلافته بفتنة كان لها أسوأ الأثر في حزب بني أمية. وكانت هذه الفتنة في الواقع نزاعاً بين عرب الشمال وعرب الجنوب[6].

---

(١) مروان بن محمد (٧٢-١٣٢هـ) يعرف بالجعدي، ولد بالجزيرة، استوى على عرش بني مروان سنة (١٢٧هـ) حيث قويت الدولة العباسية. (الأعلام: ٢٨/٧).

(٢) البداية والنهاية: ٢٢/١٠ .

(٣) البداية والنهاية: ٤٧/١٠ .

(٤) البداية والنهاية: ٤/١٠ .

(٥) البداية والنهاية: ١٦٦/٩ .

(٦) البداية والنهاية: ٢١٩/٩-٢٢٢ .

وكانت هذه الفتنة سبباً في القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبي صفرة. وفي هذه الحادثة أخذ يزيد جانب القيسيين واصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية، وأصبح العنصر اليمني ضعيفاً.

ولما توفي الخليفة يزيد بن عبد الملك وخلفه أخوه الخليفة هشام خاف من ازدياد نفوذ القيسية على الدولة، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية ليعيد التوازن بين العنصرين اليمني والقيسي إلا أنه لم يفلح في ذلك، فقد كان مقتل خالد بن عبد الله القسري زعيم اليمنية[1] من أقوى الأسباب التي عجلت بسقوط حزب بني أمية.

أما الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك فقد جانب المضريين لأن أمه كانت منهم[2] وأقصى العنصر اليميني. ومروان بن محمد سار سيرة سلفه فتعصب للقيسية وطالب اليمنية بدم الوليد بن يزيد الذين قتلوه انتقاماً لخالد بن عبد الله القسري.

هذه كانت الحال في الشام، وقد ساعد على قيام الثورة فيها أن أكثر أهلها كانوا من العنصر اليمني، فانتقل الخليفة إلى الجزيرة لإقامة دولته حيث أقامت القيسية.

وأما بلاد العراق فإن الحال لم تكن فيها أحسن مما كانت عليه في بلاد الشام، فقد اشتعلت نار العصبية في هذه البلاد حتى ظهر الضحاك بن قيس الخارجي[3] الذي استولى عليها[4]، كما استولى فريق من الخوارج على بلاد اليمن والحجاز بقيادة المختار بن أبي عبيد[5].

---

(١) البداية والنهاية: ٣٢٥/٩ .

(٢) البداية والنهاية: ٦/١٠ .

(٣) الضحاك بن قيس بن خالد الفهري القرشي (٥-٦٥هـ) سيد بني فهر في عصره، وأحد الولاة الشجعان، شهد صفين مع معاوية، دعا إلى بيعة ابن الزبير بدمشق. امتنع على مروان بن الحكم، فقتل في مرج راهط. (الأعلام: ٢١٥/٣).

(٤) البداية والنهاية: ٢٤/١٠ .

(٥) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي (١-٦٧هـ) من الزعماء الثائرين على بني أمية. وأحد الشجعان الأفذاذ، كان مع علي بالعراق، عاهد عبد الله بن الزبير بالخلافة، وشهد معه بداية حرب الحصين بن نمير، دعا إلى إمامة محمد بن الحنفية. (الأعلام: ١٩٢/٧).

وهكذا أصبحت البلاد مرتعاً للفتن والاضطرابات وشغل إخماد هذه الفتن الخليفة مروان بن محمد فلم يلتفت إلى خراسان وما كان يجري فيها من بث الدعوة العباسية التي اشتد أمرها وعظم خطرها[1].

٣- انغماس بعض الخلفاء في الترف:

كان لانصراف بعض خلفاء بني أمية إلى حياة البذخ والترف اللذين أخذوها عن البيزنطيين أثر كبير في سقوط دولتهم، فقد اشتهر يزيد بن عبد الملك بأنه صاحب لهو وقصف، شُغف بحبابة[2] جاريته واشتهر بذكرها[3]، كما اشتهر ابنه الوليد باللهو والمجون[4].

٤- تعصب الأمويين للعرب[5]:

تعصب الأمويون للعرب والعربية وأخذوا ينظرون إلى الموالي نظرة الاحتقار والازدراء مما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبعث روح الشعوبية في الإسلام، وهي حركة سلمية اشتبكت فيها الألسنة والأقلام اشتباكاً له أثر كبير، إلا أن هذه الحركة ما اتضحت تماماً إلا بعد انتهاء فترة حكم الخليفة عمر بن عبد العزيز مما أثار حنق الموالي وسَخَطِهم على الأمويين، فراحوا يشاركون الثائرة على الحكم الأموي، وأخيراً لما نشط دعاة العباسيين انضموا إلى الدعوة العباسية لينالوا حقوقهم المهضومة.

---

(١) انظر البداية والنهاية: ٣٠/١٠ ومابعدها.

(٢) حبابة: (...-١٢٥هـ): جارية يزيد ابن عبد الملك، مغنية من أحسن الناس وجهاً، وأكملهم عقلاً وأفضلهم، قرأت القرآن وروت الشعر، ماتت فحزن عليها يزيد ومات بعدها بـ ٤٠ يوماً. (الأعلام: ١٦٣/٢).

(٣) البداية والنهاية: ٢/١٠ .

(٤) البداية والنهاية: ٢٣٢/٩ .

(٥) البداية والنهاية: ٢٢٢/٩ .

لقد بدأت الدعوة العباسية منذ بداية القرن الثاني للهجرة، إذ كان الدعاة يجوبون البلاد الإسلامية متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج، فقد كانت الدعوة خالية من أساليب العنف والشدة[1]. إلا أنه عند انضمام أبي مسلم الخراساني[2]، الذي عرف بالحذق والمهارة الحربية، إلى الدعوة العباسية سنة ١٢٧هـ دخل النزاع بين الأمويين والعباسيين في دور العمل، وهو دور الحروب التي انتهت بزوال الدولة الأموية.

ففي سنة ١٢٨هـ تسلَّم أبو مسلم الخراساني مقاليد الأمور في خراسان، وكان كما أسلفنا، من أسباب سقوط الأمويين شبوب نار العصبية بين المضرية واليمانية في خراسان، وضعف قوة أمير هذه البلاد، وخروج الخوارج في اليمن وحضرموت[3].

وقد ساعدت الاضطرابات التي انتشرت في خراسان في ذلك الحين أبا مسلم الخراساني على تحقيق سياسته.

ففي عهد هشام بن عبد الملك، اشتعلت نيران العصبية بين القبائل العربية في خراسان في عهد ولاية أسد بن عبد الله القسري[4] وكان يمانياً فآثر اليمانيين على غيرهم من العرب وأسند إليهم مناصب الدولة[5]. ثم ولي هذه البلاد نصر بن سيّار[6]، وكان مضرياً، فأقصى اليمانيين، وأثار بذلك عوامل الشقاق بين هذين العنصرين. وكانت الحرب بين نصر بن سيّار والي خراسان وجديع بن

---

(١) البداية والنهاية: ١٨٩/٩ .

(٢) أبو مسلم الخراساني (١٠٠-١٣٧هـ): عبد الرحمن بن مسلم، مؤسس الدولية العباسية، وأحد كبار القادة، مقدام، داهية، راوية للشعر، قتله المنصور. (الأعلام: ٣٣٧/٣).

(٣) انظر البداية والنهاية: ٣٠/١٠ .

(٤) أسد بن عبد الله القسري (...-١٢٠هـ): أمير، ولي خراسان أسلم على يديه جد السامانيين: سامان. (الأعلام: ٢٩٨/١).

(٥) البداية والنهاية: ٣٢٤/٩ .

(٦) البداية والنهاية: ٣٢٥/٩ .

شبيب[1] المعروف بالكرماني زعيم اليمانية الذين تمت الغلبة لهم وطردوا والي خراسان، وناهضوا الحكومة الأموية، وناصروا الدعوة العباسية بعد انضمام أبي مسلم إليها، واستطاع أبو مسلم بحسن دهائه أن يضرب كل فريق بالآخر، وتم له النصر على العرب جميعاً[2].

وعرف أبو مسلم كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذي فرّق كلمة العرب في خراسان، كما استطاع أن يرابط في ظاهر مدينة مرو قاعدة خراسان، فاستمال خلالها اليمانيين وضمهم إلى صفوفه، واستولى على تلك البلاد حتى عمد إلى التخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة، فقتلهم عن آخرهم.

وقد أدرك نصر بن سيار والي خراسان مدى خطر دعاة العباسيين في هذه البلاد، فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، كتاباً يكشف له فيه عن قوة أبي مسلم وضعف الجند الأموي في خراسان. عندها عمت الثورة التي انتهت بزوال الدولة الأموية حيث قتل الخليفة الأموي مروان بن محمد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٥هـ[3] وقامت الدولة العباسية على يد أبي العباس السفاح[4] عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، وكان أبوه أول من اضطلع بنشر الدعوة العباسية.

وقد قضى السفاح معظم عهده في الخلافة في محاربة قواد العرب الذين ناصروا بني أمية، وقضى على أعقاب الأمويين، حتى أنه لم يفلت منهم إلا عبد الرحمن الداخل[5]، الذي أسس الدولة الأموية ببلاد الأندلس.

---

(١) جديع بن شبيب الكرماني (...-١٢٩هـ): شيخ خراسان وأحد الدهاة الرؤساء قتلة نصر بن سيار. (الأعلام: ١١٤/٢).

(٢) البداية والنهاية: ٣٢/١٠-٣٣ .

(٣) البداية والنهاية: ٤٦/١٠ .

(٤) أبو العباس السفاح: كان جميلاً، وسيماً، كريماً، حليماً، وقوراً، عاقلاً، كاملاً، حسن الأخلاق، أسنى الناس، يحب مسامرة الرجال، ويشجع الأدب والفناء ويطرب من وراء الستار.

(٥) عبد الرحمن الداخل: (١١٣-١٧٢هـ): عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، صقر قريش، مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، أحد عظماء العالم. (الأعلام: ٣٣٨/٣).

وكذلك وجّه السفاح همته إلى الفتك بمن والوه وساعدوه على تأسيس دولته، وقد توفي في ١٢ ذي الحجة سنة ١٣٦هـ.

وقد عهد أبو العباس السفاح بالخلافة من بعده إلى أبي جعفر المنصور[١] ثم إلى عيسى.

ابن موسى بن محمد بن علي[٢]، وكتب بذلك العهد، وختم عليه بخاتمه، وشهد بذلك أهل بيته، وسلّمه إلى عيسى بن موسى.

أما في خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) فقد حدثت أحداث خطيرة: من ذلك حرج مركز العباسيين بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عمه عبد الله بن علي والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية نفسه. ولكن المنصور استطاع بحزمه وكيده أن يقهر العرب ويأسر عمه ثم يقتله، وأن يقهر الفُرس ويقتل أبا مسلم[٣]؛ كما استطاع المنصور أن يقهر العلويين ويقتل محمداً «النفس الزكية»[٤] بن عبد الله بن الحسن في الحجاز وأخاه إبراهيم[٥] في العراق.

ومنها أيضاً خلع عيسى بن موسى بن محمد العباسي من ولاية العهد وأخذ البيعة للمهدي ابن المنصور وقد توفي المنصور سنة ١٥٨هـ نتيجة شج فيما بين حاجبيه، وإكثاره من الطعام وعدم عمله بنيصحة الأطباء مما أدى إلى اشتداد علته

---

(١) أبو جعفر المنصور: ولد سنة ١٠١هـ وكان أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً ويقظة وحزماً وصلاحاً واهتماماً بمصالح الرعية وجداً في بلاطه حيث لم يعرف عنه ميل إلى اللهو والعبث. ويعتبر المؤسس الثاني للدولة العباسية. وكان يكره سفك الدماء وكان حريصاً في النفقات وحريصاً على جمع المال، حسن السياسة، صائب الرأي، وقوراً، حسن الخلق.

(٢) عيسى بن موسى (١٠٢-١٦٧هـ): من الولاة القادة، كان يقال له شيخ الدولة، ولاه عمه الكوفة. (الأعلام: ٥٠/١١٠).

(٣) البداية والنهاية: ١٠/٧١ .

(٤) محمد النفس الزكية: محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (٩٣-١٤٥هـ): ولد ونشأ في المدينة، كان غزير العلم، فيه شجاعة، وحزم، وسخاء، قتله عيسى بن موسى. (الأعلام: ٦/٥٢٠).

(٥) إبراهيم بن عبد الله بن الحسن (٩٧-١٤٥هـ) أحد الأمراء الأشراف الشجعان، كثرت شيعته، كانت بينه وبين المنصور وقائع هائلة، قتله حميد بن قحطبة. (الأعلام: ١/٤٨).

ومن ثم وفاته، فولي ابنه المهدي[1] الخلافة من بعده حيث قضى فيها زهاء عشر سنين، تعتبر فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذي ساد عهد من سبقه من خلفاء بني العباس وعهد الاعتدال واللين الذي امتازت به أيامه وأيام من أتى بعده.

وقد ذكر المؤرخون أنه ردَّ الأموال التي صادرها أبوه إلى أهلها، وأطلق العلويين الذين حبسهم أبوه، وعفا عنهم، وأدى إليهم أرزاقهم. وقد بدأ المهدي عهده بسلسلة ضروب من الإصلاح، كما وفق إلى القضاء على الزنادقة وغيرهم من الخوارج عليه وعلى الدين.

فمن أعماله أنه أمر بالإفراج عن المسجونين إلا أكثرهم شراً وفساداً وبنى الأبنية في طريق مكة، كما بنى الأحواض التي تملأ من الآبار لسقاية القوافل وزاد في المسجد الحرام، وعين الأمناء في الولايات فساد العدل وعم الرخاء جميع أرجاء الدور. وقد حصّن المدن وخاصة الرُّصافة[2] وصارت بغداد مركزاً لتجارة العالم، وغدت الموسيقى والسفر والحكمة والأدب من مميزات هذا العصر[3]. وسنَّ المهدي سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة في كل عام، وكان المهدي يميل إلى السنة؛ فنزع المقاصير في صلاة الجمعة، وصيَّر المنبر على القدر الذي كان عليه منبر الرسول ﷺ[4].

وفي عهد الخليفة المهدي خرج عبد الله بن مروان بن محمد الأموي ببلاد الشام سنة (١٦١هـ).

ـ سنة وفاة الإمام الثوري ـ وحلّت به الهزيمة وحبس ثم عفا المهدي عنه ووسع عليه الأرزاق، إضافة إلى غيرها من الثورات بعد ذلك.

---

(١) المهدي: الخليفة العباسي الثالث، كان محبباً إلى الخاص والعام لأنه افتتح عهده بالنظر في المظالم، والكف عن القتل، وأمّن الخائف وإنصاف المظلوم، وبسط يده في الإعطاء. كما من خُلقه الحياء والعفو والجود والحلم ولم يكن يشرب النبيذ، واتصف بالعدل وجلس للمظالم بنفسه.

(٢) الرُّصافة: رصافة بغداد بالجانب الشرقي بناها المهدي وفرغ من بنائها والجامع بها سنة (١٥٩) وفيها مقابر جماعة الخلفاء من بني العباس وعليها تربة عظيمة بعمارة هائلة. (معجم البلدان، لياقوت الحموي: ٤٦/٣).

(٣) البداية والنهاية: ١٢٩/١٠ .

(٤) البداية والنهاية: ١٣٣/١٠ .

لقد تميزت هذه الفترة من الحكم العباسي بتنكيل العباسيين ببني أمية، وميلهم إلى الفرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية حيث طمع الفرس في السلطان ومن ثم استأنفوا الدعوة لآل علي؛ ويعود ميل العباسيين إلى الفرس إلى أمر طبيعي هو أنهم هم الذين ساعدوهم على تأسيس دولتهم وقاموا في وجه أعدائهم الأمويين. أما دعوة الفرس لآل علي فسببه ما كانوا يعتقدونه من أنهم وحدهم يملكون حق حمل الخلافة لكونهم وارثي آل ساسان من جهة أمهم شهربانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك هذه الأسرة، ولأنهم الأئمة رؤساء الدين حقاً. وذلك يتفق مع معتقداتهم الدينية: إذ كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرة تقديس وإكبار، ويعتقدون أنهم ظل الله في الأرض. كما كانوا يعتقدون أن العلويين وبخاصة أبناء الحسين بن علي يمثلون حق النبوة والملك لأنهم من سلالة النبي وآل ساسان. وقد اضطلع بأمر الدعوة إلى آل علي أحد زعماء الفرس أبو سلمة الخلال[1].

ظهور حركة الراوندية:

وقد تميزت هذه الفترة من الحكم كما أسلفنا بخرج مركز العباسيين أيام المنصور بين الساخطين العرب وعلى رأسهم عم المنصور عبد الله بن علي والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني. فكان نتيجة ذلك انتشار حركات الموالي في تلك الحقبة كحركة الراوندية[2] التي نشأت في زمن المنصور حيث لم يكد المنصور ينتهي من قتل أبي مسلم الخراساني حتى فوجئ بتعاليم جديدة يدعو إليها أهل فارس، وكانوا قبل الفتح الإسلامي يقدسون ملوكهم فيجعلونهم في مصاف الآلهة. وإن رجلاً من الراوندية يدعى الأبلق زعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم عليه السلام صارت في علي بن أبي طالب ثم في الأئمة واحدة بعد واحد وأنهم آلهة، كما استحلو الحرمات، فبلغ

---

(١) أبو سلمة الخلال: اسمه حفص بن سليمان مولى لبني الحارث بن كعب: اشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية: كان فصيحاً عالماً بالأشعار والسير والجدل والتفسير.
(٢) البداية والنهاية: ١٠/٧٥-٧٦ .

ذلك أسد بن عبد الله «القسري» فقتلهم وصلبهم، فعبدوا أبا جعفر المنصور وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح فلم ير المنصور بداً من أن يضرب على أيدي هؤلاء لأنه لم يكن يستطيع أن يوافقهم على قولهم لخروجهم على الدين والدولة لأن ذلك من شأنه أن يثير العرب عامة.

وكان أبو جعفر المنصور ينظر إلى الراوندية كأعداء سياسيين لأنهم من أتباع عدوه أبي مسلم الخراساني كما كان ينظر إليهم باعتبارهم زنادقة، فعاملهم كما عامل أبا مسلم وقتلهم شر قتلة إلا أنه مع ذلك لم يستطع أن يقضي عليهم قضاء تاماً.

ظهور حركة المقنعية:

وكذلك نشأت حركة المقنعية (١٥٨-١٦٩هـ) في عهد الخليفة المهدي حيث ظهر المقنع[١] بخراسان وكان رجلاً قبيح الخلقة أعور قصيراً من أهل مرو، عمل وجهاً من ذهب وركَّبه على وجهه وادعى الألوهية وأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج كما قال بتناسخ الأرواح.

ولما قوي المقنع وكثر أتباعه، انضم إليه أهل بخارى وسمرقند والأتراك، واعتصم بقلعة حصينة، وأرسل إليه الخليفة المهدي سبعين ألف مقاتل بقيادة معاذ بن مسلم، ولما شعر المقنع بالهزيمة تحسَّى سماً وسمَّ نساءه فماتوا جميعاً، وذلك سنة ١٦٣هـ[٢] ولكن موت المقنع لم يضع حداً لتعاليمه التي اعتنقها نفر من بلاد ما وراء النهر وأصبحوا يعرفون باسم المقنعية المبيضة.

---

(١) المقنع (.. ـ نحو ٧٠هـ): محمد بن عميرة بن أبي شمر بن فرعان بن قيس بن الأسود بن عبد الله الكندي. شاعر من أهل حضرموت كان مقنعاً طوال حياته، اشتهر في العصر الأموي. (الأعلام: ٦/٣٢٠).

(٢) انظر البداية والنهاية: ١٠/١٤٥-١٤٦ .

المبحث الثاني: الحياة الدينية

في عهد رسول الله ﷺ، كان الناس يلتفون حول قيادة روحية وسياسية واحدة هي قيادة رسول الله محمد ﷺ، وكان هذا هو الحال في عهد الخلفاء الراشدين، إلا أنه في الحين الذي اختلفت فيه القيادات ظهر أتباع لكل جبهة مما أدى إلى انقسام الناس فبدأ ظهور حركات اتصفت بأنها سياسية دينية نذكر من تلك الحركات:

الخوارج :

كانوا من أشياع علي بن أبي طالب ثم خرجوا عليه بعد التحكيم الذي جرى بينه وبين معاوية بن أبي سفيان. وكانوا يقولون بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى وعلي إلى أن حكّم الحكمين. ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربي.

بعد صفين لم يدخلوا الكوفة مع علي، ونزلوا قرية بظاهرها تسمى حَرُوراء، وكان عددهم اثني عشر ألفاً، ونادى مناديهم: إن أمير القتال شبث بن ربعي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكوّاء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سار الخوارج من أهل البصرة والكوفة إلى النهروان مستخلفين عليهم عبد الله بن وهب الرَّاسبي، وأخذوا يقتلون كل من لم يشاطرهم رأيهم، فسار إليهم علي، وانتصر عليهم، ولكن فئة منهم اعتزلت القتال، ولم تعتزل رأيها، فكانوا أشد الأحزاب خطراً، إذ يرون أن غيرهم من المسلمين كفار، وأن دماءهم وأموالهم حلال[1].

في الحقبة التي نتكلم عنها لم يحرك الخوارج ساكناً في عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كان من سياسته أن يجنح إلى المسالمة ويرى أنها كفيلة بحل المشكلات وجمع الشمل

(١) الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل: ٢٤١ .

وتوحيد الكلمة حيث إن الخوارج لما خرجوا في عهده قارعهم بالحجة وقد نجح في إقناع الرسل الذين أرسلهم إليه زعيم الخوارج[1] لكن موت عمر حال دون جني ثمار جداله معهم.

وقد نصب الخوارج أنفسهم في بلاد العراق والجزيرة منذ خلافة عمر بن عبد العزيز حماة للضعفاء والمضطهدين وحرباً على المستبدين والطاغين.

وفي عهد مروان بن محمد الأموي تفاقم خطر الخوارج، وانتهز الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي فرصة انقسام حزب بني أمية على نفسه إثر مقتل الوليد بن يزيد وإذكاء نار العصبية بين القبائل العربية، فخرج على بني أمية[2] وانضم إليه الخوارج. وزاد هذه الحالة سوءاً عزل مروان بن محمد عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عن العراق وتولية النضر بن سعيد الحريشي، فامتنع عبد الله في الحيرة، فسار إليه النضر وانضم قيس إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وطالبوا مروان بدم الوليد ـ وكانت أمه من قيس ـ كما انضمت إليه اليمنية لاشتراكهم في قتل الوليد.

فلما رأى الضحاك ذلك الخلاف زحف على الكوفة سنة ١٢٧هـ[3] فانضم إليه عبد الله بن عمر بن سليمان بن هشام، وهكذا ظهر الانقسام بين أفراد البيت الأموي ظهوراً بيناً، وأخذ بعضهم ينضم إلى الثائرين ليكيد الفريق الآخر.

واشتد خطر الضحاك في الكوفة حتى بلغ أنصاره زهاء مائة ألف وغدا يهدد سلامة الدولة الأموية وسرعان ما غادر الكوفة وسار إلى الموصل[4] ثم إلى نصيبين[5]، فكتب الخليفة مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله أن يسير إليه، فحاصره في نصيبين، ثم لحق به مروان وقضى عليه وهزم أتباعه عند ماردين سنة ١٢٨هـ.

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير: ١٨٧/٩ .

(٢) المرجع السابق: ٢٥/١٠ .

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير: ٢٥/١٠ .

(٤) الموصل: المدينة المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، قليلة النظير كِبراً وعظماً وكثرة خلق. (معجم البلدان: ٢٢٣/٥-٢٢٥).

(٥) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام. بينها وبين الموصل ستة أيام. (معجم البلدان: ٢٨٨/٥).

على أن موت الضحاك لم يضع حداً لثورات الخوارج في العراق، فقد ظهر زعيم آخر هو أبو حمزة الخارجي[1] أرسل إليه الخليفة مروان بن محمد جيشاً عام ١٣٠هـ التقى مع الخوارج في وادي القرى فقتل أبا حمزة وكثيراً من أصحابه، ثم قتل خليفته عبد الله المعروف بطالب الحق[2] وكثير من أتباعه، وكانت ثورة أبي حمزة آخر ثورات الخوارج في عهد بني أمية.

الشيعة[3]:

اعتقد أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أحق بالخلافة، وأن أبا بكر وعمر وعثمان أخذوا حق الإمامة المقدس من علي، وأتاح تذمر المسلمين من سياسة عثمان الفرصة لأنصار علي لتحويل الخلافة إلى أهل البيت، وأذكى نار الثورة أبو ذر الغفاري[4] بتحريض ابن سبأ[5] الذي أخذ يتنقل بين الولايات الإسلامية. ويضع عقائد مذهب الشيعة الغالية في الإسلام. وانتهى به المطاف إلى مصر حيث أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدين وأرسل دعاته إلى الأمصار الإسلامية لنشر الدعوة لعلي، ووضع مذهب الرجعة ـ أي رجعة محمد ﷺ ـ وأن محمداً أحق بالرجعة من عيسى كما نشر ابن سبأ مذهب الوصاية الذي أخذه عن اليهودية، دينه القديم، بمعنى أن علياً وصى محمد وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم الأنبياء.

---

(١) أبو حمزة الخارجي: (...-١٣٠هـ) المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الأزدي السليمي البصري، ثائر فتاك، من الخطباء القادة، ولد بالبصرة وأخذ بمذهب الإباضية، التقى بطالب الحق عبد الله بن يحيى. (الأعلام: ١٩٢/٧).

(٢) عبد الله بن يحيى بن عمر بن الأسود الكندي الجندي الحضرمي (..-١٣٠هـ)، الملقب بطالب الحق، إمام إباضي من أهل اليمن، خلع طاعة مروان بن محمد، وتبعه أبو حمزة الخارجي. (الأعلام: ١٤٤/٤).

(٣) الشيعة: هم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي ﷺ، وقد قروا أنها حق لعلي ثم لأولاده بالوراثة من بعده. وقال الغلاة منهم: إن الأئمة معصومون وإن صفات الله قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم وإن من قال بغير ذلك من الفرق الإسلامية خارجون عن الدين.

(٤) أبو ذر الغفاري: (...-٣٢هـ) جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد: من بني غفار، صحابي، يقال: أسلم بعد أربعة وكان خامساً. يضرب به المثل في الصدق، وهو أول من حيا رسول الله ﷺ تحية الإسلام. روى له البخاري (٢٨١) حديثاً. (الأعلام: ١٤٠/٢).

(٥) عبد الله بن سبأ: (...- نحو ٤٠هـ) رأس الطائفة السبيئية وكانت تقول بألوهية علي. أصله من اليمن. قيل: كان يهودياً وأظهر الإسلام، رحل إلى الحجاز، فالبصرة، فالكوفة، ودخل دمشق في أيام عثمان بن عفان، فأخرجه أهلها فانصرف إلى مصر وجهر ببدعته. قال ابن حجر العسقلاني: «ابن سبأ غلاة الزنادقة، أحسب أن علياً أحرقه». (الأعلام: ٨٨/٤).

وعند تسلَّم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة لم يرض عن ابن سبأ وما ذهب إليه فنفاه إلى المدائن[1] إلا أنه لم يتراجع عن مواصلة دعوته.

وفي بداية العهد الأموي خمدت روح التشجيع إلى الشيعة في نفوس أهل الكوفة إلا أن سياسة الحكام في سبِّ علي وأهل بيته على المنابر أثارت حنق الشيعة عليهم. فعادت تتقد جذوتها؛ حيث خرج زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي[2] على هشام بن عبد الملك إلا أن أصحابه خذلوه فمات من ساعته[3]، وإلى زيد هذا تنسب جماعة الزيدية التي تفرعت منها جماعة الرافضة[4].

انقسمت الزيدية بعد موت زيد[5] إلى طوائف عدة فظل فريق منهم على ولائه لزيد وبايعوا ابنه يحيى وقاتلوا معه في خراسان سنة (١٢٥هـ-٧٤٣م) إلا أنه آل إلى ما آل إليه أبوه.

وعندما سادت الحروب الأهلية التي اشتعلت بسبب انقسام خلفاء بني أمية على أنفسهم، وساد الاضطراب كافة أنحاء الدولة الأموية رفع الشيعة رؤوسهم.

ولا تقيَّة عند الزيدية، ولا عصمة للأئمة، ولا غيبة لهم، فهم أقرب الفِرَق إلى السُّنة[6].

---

(١) المدائن: بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين بغداد ستة فراسخ، وأهلها فلاحون يزرعون ويحصدون والغالب على أهلها التشيع. (معجم البلدان: ٧٥/٥).

(٢) زيد بن علي بن زين العابدين (٧٩-١٢٢هـ): زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: الإمام، قرأ على واصل بن عطاء، رأس المعتزلة، واقتبس منه علم الاعتزال. قاتل الأمويين بمعارك انتهت بقتله. (الأعلام: ٥٩/٣).

(٣) البداية والنهاية: ٣٢٧/٩ .

(٤) الرافضة: يرجع السبب في تسميتهم الرافضة إلى أن زيداً لما اشتبك مع يوسف بن عمر الثقفي قالوا له: «إننا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك علي بن أبي طالب». فقال زيد: إني لا أقول فيهما إلا خيراً. وإنما خرجت على بني أمية لأنهم قتلوا جدي الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار« ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم: «رفضتموني»، فأطلق عليهم الرافضة.

(٥) وكان هذا سنة ١٢١هجرية. انظر: البداية والنهاية: ٣٢٧/٩ ويرى ابن كثير أن المشهور أن زيد ابن علي قد قتل في السنة ١٢٢هـ. انظر البداية والنهاية: ٣٢٩/٩ .

(٦) الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل: ٢٤٥ . (الملِل والنحل، الشهرستاني: ٦٣).

المرجئة:

هي طائفة ظهرت في دمشق بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري وقد سميت هذه الطائفة المرجئة من الإرجاء والتأخير لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث. ويقال أن أول من تكلم في الإرجاء الحسن بن محمد بن الحنفية[1].

وكانت العقيدة الأساسية عند المرجئة عدم تكفير أي إنسان أياً كان مهما ارتكب من المعاصي، مادام قد اعتنق الإسلام ونطق بالشهادتين، تاركين الفصل في أمره لله وحده.

وقد غلا جهم بن صفوان أحد رؤوس المرجئة، فزعم أن «الإيمان عقد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام وعبد الصليب، وأعلن التثليث في دار الإسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل، واعتبر عند الله عز وجل من أهل الجنة ».

وكان من الطبيعي أن تدفع مثل هذه العقيدة أصحابها إلى إطراح الفرائض العملية للإسلام ووضعهم واجبات المرء نحو من يحيط به من الناس، فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن[2].

وهؤلاء هم في الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني أمية.

وكانت آراؤهم تتفق تماماً مع رجال البلاط الأموي ومن يلوذ به. وبزوال الدولة الأموية أفل نجم طائفة المرجئة ولم تصبح بعد حزباً مستقلاً.

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير: ٨٥/٩ . توفي سنة ١٩٩هـ.
(٢) الملل والنحل، للشهرستاني: ٦٠ .

وقد قام الحارث بن سريج[1] على رأس المرجئة بثورة على الأمويين في بلاد ما وراء النهر. وطالما حارب الحكومة الأموية لاشتطاطها في جمع الضرائب من الأهلين، وكان يزعم أنه المهدي الذي بعثه لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين. لذلك أشعل نار الثورة على بني أمية. وكل ما كان يرمي إليه الحارث الرجوع إلى القرآن والسنة، وانتخاب حكومة ترضى عنها الأغلبية. وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على شواطئ نهر سيحون. ثم اضطر أمام ضغط جيوش أسد بن عبد الله القسري الذي ولي خراسان إلى التخلي عما فتحه من البلاد والانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر (١١٩هـ)[2]. ثم عفا عنه الخليفة الوليد الثاني بتدخل نصر بن سيار من مرو حاضرة خراسان، ثم دبَّ بينه وبين اليمانية ذلك الشقاق الذي لم ينته إلا بموته سنة ١٢٨هـ، ولم تكن ثورة الحارث إلا نتيجة لتذمر الموالي وعلى رأسهم المرجئة.

المعتزلة:

تدعى هذه الطائفة بالقدرية أيضاً. لقد اختلف واصل بن عطاء الغزال[3] الفارسي مع أستاذه الحسن البصري[4] الفقيه المشهور في مسألة «المؤمن العاصي الذي ارتكب ذنباً كبيراً، هل يسمى مؤمناً أو لا؟» يقول واصل: إن مثل هذا الشخص لا يمكن أن يسمى مؤمناً كما لا يمكن أن يسمى كافراً، بل يجب أن يوضع في منزلة بين المنزلتين. وقد انتحى واصل ناحية بعيدة عن المسجد وأخذ يشرح رأيه لزملائه من التلاميذ الذين اتبعوه، فكان الحسن البصري يقول للذين حوله: إن واصلاً اعتزل عنا. ومن ثم أطلق خصوم واصل عليه وعلى أتباعه اسم المعتزلة.

---

(١) الحارث بن سريج (...-١٢٨هـ) ثائر من الأبطال، خرج مع هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي قاتله نصر بن سيّار حتى قتل. (الأعلام: ١٥٤/٢).

(٢) البداية والنهاية: ٣٢٢/٩ .

(٣) واصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ): رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين، سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزال حلقة درس الحسن البصري. له تصانيف منها: «المنزلة بين المنزلتين». (الأعلام: ١٩/٨).

(٤) الحسن البصري (٢١-١١٠هـ): تابعي. كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النُّساك. ولد بالمدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب. (الإعلام: ٢٢٦/٢).

ويظهر أن مولد تلك الطائفة ومهدها كان بلاد العراق، وهي بابل القديمة التي أصبحت بعد قليل كعبة العلم، ثم غدت بعد قليل أيضاً مقر الحكومة في عهد العباسيين.

وتتكون عقيدة المعتزلة من خمسة أصول: التوحيد، والعدل، والوعيد، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما القول بالتوحيد: فقد ذهبت المعتزلة أن الله عز وجل لا كالأشياء، وأنه ليس بجسم ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر، إن شيئاً من الحواس لا يدركه في الدنيا ولا في الآخرة وأنه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار بل هو الذي لم يزل ولا زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حد وأنه الخالق للأشياء المبدع لها لا من شيء، وأنه القديم وأن ما سواه مُحْدَث.

وأما القول بالعدل فمعناه أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد بل إنهم يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ولم ينه إلا عما كره، وأنه ولي كل حسنة أمر بها بريء من كل سيئة نهى عنها لم يكلفهم ما لا يطيقونه، ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه، وأن أحداً لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله التي أعطاهم إياها، وهو المالك لها دونهم، يفنيها إذا شاء ويبقيها إذا شاء. ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطرارياً عن معصيته، ولكان على ذلك قادراً، غير أنه لا يفعل، إذ كان في ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى.

وأما القول بالوعيد، وهو الأصل الثالث، فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وإنه لصادق في وعده، ووعيده، لا مبدل لكلماته.

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر، بل يسمى فاسقاً على حسب ما وردت تسميته وأجمع أهل الصلاح على فسوقه.

وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الأصل الخامس، فهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم في ذلك بالسيف فما دونه، وإن كان كالجهاد، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق.

ويقول المعتزلة أيضاً بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحَسَنِ والقبيح ولو لم يرد بهما شرع، وأن الشيء صفة فيه جعلته حسناً أو قبيحاً[1].

وقد ابتدأت هذه الطائفة دينية إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة فتكلمت في الإمامة وشرط الإمامة، وهم يلقبون فقهاءهم بلقب إمام، وينسبون عقائدهم إلى علي بن أبي طالب حيث يدّعون بأنه ليس ثمة مؤسس لمذهب المعتزلة وعلم الكلام غير الإمام علي.

إن هذه الأحزاب كان لها أثر كبير في زوال الدولة الأموية، حيث أن هذه الأحزاب كانت تعتقد أن جهاد الأمويين جهاد ديني، وكانوا يستندون في ذلك إلى سوء سيرة يزيد الأول ويزيد الثاني والوليد الثاني من الخلفاء الأمويين، ولا سيما ما كان من هتك حرمة المدينة في عهد يزيد واتخاذهم المقاصير لتحجب الخليفة عن الناس[2].

المبحث الثالث: الحياة العلمية[3]:

كانت عناية المسلمين في صدر الإسلام مقتصرة على العلوم الدينية، وهي القرآن وتفسيره والحديث وروايته واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجدّ من مشاكل وما يعرض من أحداث. لذلك نلاحظ أن العلوم المتصلة بالدين قد انتشرت في عهد بني أمية، بخلاف ماكانت عليه الحال في أيام العباسيين الذين اشتغلوا بالعلوم العقلية كالطب والفلسفة والرياضيات وغيرهما، إضافة إلى اشتغال الناس في العصر العباسي الأول بالعلوم الدينية:

---

(١) الملل والنحل، الشهرستاني: ٢١ .
(٢) انظر الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل: ٢٤٧-٢٤٩ .
(٣) انظر تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن: ٢/٣٢٤-٣٣٨ .

التفسير:

لم تحدث الطريقة المنظمة في تفسير القرآن إلا في العصر العباسي، ومن أشهر المفسرين عبد الله بن عباس[١]، وابن جريج[٢]، وكان يجمع كل ما وصل إليه تحرّي الدقة في التفسير، والسُّدي[٣] المتوفى سنة ١٢٧هـ، وقد اعتمد في تفسيره على ابن عباس وابن مسعود[٤] وغيرهما من الصحابة، ومقاتل بن سليمان[٥] المتوفى سنة خمسين ومائة هجرية وقد تأثر بتفسير التوراة الذي اتخذه عن اليهود حتى إن أبا حنيفة اتهمه بالكذب.

الحديث:

أخذ العرب المسلمون يدونون الأحاديث النبوية في بداية القرن الثاني الهجري، وقد أتيحت الفرصة لظهور طائفة من الأئمة الذين اشتغلوا بالحديث في العصر العباسي. وكان من أشهر المحدثين في العصر الأموي أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري[٦] المتوفي سنة ثلاث وعشرين ومائة هجرية، ومحمد بن إسحاق[٧] صاحب المغازي المشهور الذي أخذ عنه سفيان الثوري الإمام.

---

(١) عبد الله بن عباس (٣ ق.هـ-٦٨هـ): حبر الأمة الصحابي الجليل، ولد بمكة، لازم رسول الله ﷺ روي عنه الأحاديث الصحيحة وشهد مع علي الجمل وصفين. (الأعلام: ٤/٩٢٥).

(٢) ابن جريج: (٨٠-١٥٠هـ) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، فقيه الحرم المكي، كان إمام أهل الحجاز في عصره. وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة. رومي الأصل. قال الذهبي: كان ثبتاً لكنه يدلّس. (الأعلام: ٤/١٦٠).

(٣) السُّدي: (...-١٢٨هـ) إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدي، تابعي، حجازي الأصل. كان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس. (الأعلام: ١/٣١٧).

(٤) ابن مسعود: (...-٣٢هـ): عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي: صحابي من أكابرهم فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله (وهو من أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادم رسول الله (ورفيقه. (الأعلام: ٤/١٣٧).

(٥) مقاتل بن سليمان (...-١٥٠هـ) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي، من أعلام المفسرين. كان متروك الحديث.

(٦) الزُّهري: أول من دوّن الحديث، وهو تابعي، كان يحفظ ألفين ومئتي حديثاً نصفها مسند. (الأعلام: ٧/٩٧).

(٧) محمد بن إسحق: (.. -١٥١هـ) من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة. كان قدرياً ومن حفاظ الحديث. (الأعلام: ٦/٢٨).

النحو:

نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول الهجري، وفيهما وضعت علوم العقائد والفقه، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين، وكان يقيم في هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة، وآلاف من الصناع والموالي الذين كانوا يتكلمون الفارسية. ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شيء غير قليل من الفساد، ودعت الحاجة والضرورة إلى تقويم اللسان العربي حتى لا يتعرض القرآن الكريم للتحريف. وكانت مدرسة البصرة أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها، وقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة الكوفة، ومن علمائها المبرزين أبو عمرو بن العلاء[1] المتوفى سنة ثلاث وعشرين ومائة هجرية، سبعين وسبع مائة ميلادية.

الأدب:

في عهد بني أمية، ظهرت أحزاب مختلفة كلها يطاحن ويناضل بالقول والسيف للوصول إلى السيادة والحكم، واتسعت صدور الخلفاء للشعراء المادحين والمشيدين بعظمة الملك وبسطوة الخلفاء، وقلدهم في ذلك الحكام والولاة في الأقاليم المختلفة.

ثم إن تغير الحالة الاجتماعية وارتقاء الحياة العربية، وارتفاع مستوى الحضارة والتحدث في البيت العربي، ووجود الإماء الأعجميات في البيت العربي أدى إلى نشوء فنون جديدة من الشعر.

وفي عهد بني العباس، نهج الشعراء مناهج جديدة في المعاني والموضوعات

---

(١) أبو عمرو بن العلاء: (٧٠-١٥٤هـ) زبّان بن عمار التميمي المازني البصري، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة. (الأعلام: ٣/٤١).

والأساليب حتى فاقوا كل من سبقهم، كأبي نواس[1]، وقد كان شعره يناسب الحضارة والترف اللذين شاعا في العصر العباسي.

أما حق النشر فقد نشأ نتيجة لانتشار الدواوين ـ وهي تلك الرسائل التي كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولاته وعماله في الأقاليم ـ حتى ظهر في آخر عهد الدولة الأموية عبد الحميد الكاتب[2] الذي يعدُّ بحق مؤسس الكتابة الفنية.

وفي هذا العهد ظهرت طبقة الأرستقراطيين وكان لها أثر محسوس في ظهور فني الغناء والموسيقى من المغنين العرب نظموا قطعاً من السفر ولحنوها. ونبغ في الموسيقى كثيرون من أمثال معبد[3]، ونبغ في الشعر كثير من الشعراء أمثال الفرزدق[4] وجرير[5] والأخطل[6]، وكلهم من أهل العراق مولداً ومنشأ.

وكان للأحزاب السياسية شعراء أبلوا بلاء حسناً في نصرتهم وتأييد مذاهبم وآرائهم والدفاع عنها والدعوة إليها نذكر منهم عبد الله بن قيس الرقيات من الزبيريين، والكميت بن زيد الأسدي[7] من الشيعة.

---

(١) أبو نواس: (١٤٦-١٩٨هـ) الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكي الولاء، شاعر العراق في عصره اتصل بالخلفاء من بني العباس ومدح بعضهم، وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية وقد نظم في جميع أنواع الشعر. (الأعلام: ٢/٢٢٥).

(٢) عبد الحميد الكاتب: (...-١٣٢هـ) عالم بالأدب من أئمة الكتّاب يضرب به المثل في البلاغة، وعنه أخذ المتراسلون: التقى بمروان بن محمد آخر خلفاء بن أمية. (الأعلام: ٣/٢٩٠).

(٣) معبد (....- نحو ٧٠هـ) معبد بن علقمة المازني: شاعر من الشجعان يقال له ابن أخضر له مواقف وأشعار في حرب الخوارج. (الأعلام: ٧/٢٦٤).

(٤) الفرزدق: (...-١١٠هـ) همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، شاعر من النبلاء من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، كان يقال: لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس. (الأعلام: ٨/٩٣).

(٥) جرير: (٢٨-١١٠هـ) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي من تميم أشعر أهل عصره عاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل. (الأعلام: ٢/١١٩).

(٦) الأخطل: (١٩-٩٠هـ) غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو من بني تغلب، شارع مصقول الألفاظ، حسن بديباجته، في شعره إبداع، اشتهر في عهد بني أمية، وأكثر من مدح ملوكهم. (الأعلام: ٥/١٢٣هـ).

(٧) الكميت بن زيد الأسدي (٦٠-١٢٦هـ): شاعر الهاشميين من أهل الكوفة، اشتهر في العصر الأموي، وكان عالماً بآداب العرب، ولقائها، وأخبارها، وأنسابها، ثقة في علمه، وهو من أصحاب الملحمات. (الأعلام: ٥/٢٣٣).

علم القراءات:

وهو العلم الذي يعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن. ويرجع السبب في ظهور بعض هذه القراءات إلى خاصية الخط العربي، إذ أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها.

وقد وجدت على مر الزمن سبع طرق في القراءات تمثل كل طريقة منها مدرسة معترف بها، ويرجع أغلب الاختلافات في القراءات إلى رجال موثوق بهم ممن عاشوا في القرن الأول كابن عباس، وإلى قراء معترف بهم كعبد الله بن مسعود. ومن أشهر أصحاب القراءات في العصر العباسي الأول يحيى بن حارث الذماري المتوفى سنة خمس وأربعين ومائة هجرية، وحمزة بن حبيب الزيات[1] المتوفى سنة ست وخمسين ومئة هجرية. ممن عاصروا الإمام الثوري.

الفقه:

نشأت الفقه عن دراسة القرآن والحديث وتعرّف معانيهما الخاصة، وقد مرّ بأدوار مختلفة منذ بعثة رسول الله ﷺ إلى وقتنا الحاضر؛ وفي العهد الذي نبحث فيه اتسم الفقه بشرح قانوني لنصوص الأحكام من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وصدور عدة فتاوى اجتهادية صدرت عن الصحابة وتابعيهم وتابعي التابعين في وقائع، وانقسام حزبي ابتدأ سياسياً في شأن الخلافة ثم تحوّل إلى انقسام ديني خطر على التشريع، فلقد نتج عن هذا الاختلاف ثلاثة أحزاب، كل حزب له آراؤه وفقهه، وهؤلاء الأحزاب الثلاثة هم أهل السنة والخوارج والشيعة.

ففي هذه الحقبة من الزمن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وزهت بحضاراتها التي سمت على كل الحضارات، مما كان له عظيم الأثر في الفقه لأنه يمكّن القائم به من وضع المسائل المختلفة ليستنبط الجواب عنها.

---

(١) حمزة بن حبيب الزيّات: (٨٠-١٥٦هـ): أحد القراء السبعة، كان عالماً بالقراءات، انعقد الإجماع على تلقي قراءته بالقبول. قال الثوري: «ما قرأ حمزة جزءاً من كتاب الله إلا بالعشر». (الأعلام: ٢/٢٧٧).

لقد أصبح الفقه علماً في هذه الحقبة وذلك لاتساع رقعة الدولة الإسلامية، وحرية الرأي، وحرص المسلمين على التمسك بدينهم، وعناية الخلفاء بالفقه والفقهاء على أن اختلاف أئمة الفقه في فهم بعض النصوص الفقهية واستنباط الأحكام منها قد أدى على تعدد المذاهب فيما بعد.

ومن أشهر فقهاء هذه الحقبة من الزمن الليث بن سعد[١] «المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة هجرية» وأبو حنيفة النعمان[٢] ومالك بن أنس[٣].

العلوم العقلية:

استمد العرب آراءهم وعلومهم من الثقافة اليونانية التي كانت منتشرة منذ فتوحات الإسكندر في مصر[٤] وسورية[٥] وغربي آسية. ولم يكن لترجمة الكتب العربية حظ كبير في عهد بني أمية.

وكانت المساجد تعد من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة، وأصبح كثير منها مراكز هامة للحركة العلمية وأحسن مثل لذلك مسجد البصرة مما ساعد على الامتزاج بين الثقافة الإسلامية والعربية وغيرها من الثقافات، ولم يكن عدد المدرسين كثيراً ولم يفرض لهم النفقات إلا أنه قد أُثِر عن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى والي حمص: «انظر إلى القوم الذين نصّبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ماهم عليه من بيت المال حتى يأتيك كتابي هذا فإن فيه الخير. أعجله والسلام».

---

(١) الليث بن سعد: (٩٤-١٥٧هـ): إمام أهل مصر في عصره حديثاً وفقهاً، أصله عن خراسان، قال الإمام مالك: الليث أفقه من مالك. (الأعلام: ٢٤٨/٥).

(٢) أبو حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ) أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي، إمام الحنفية، الفقيه، المجتهد، المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، قيل أصله من فارس، كان كريماً في أخلاقه، حسن المنطق، والصورة، جهوري الصوت له مسند في الحديث. (الأعلام: ٣٠٦/٨).

(٣) مالك بن أنس: (٩٣-١٧٩هـ): إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه ينتسب المالكية، مولده ووفاته في المدينة، كان صلباً في دينه، له كتب منها: "الموطأ". (الأعلام: ٢٥٧/٥).

(٤) مصر: هي من فتوح عمرو بن العاص في أيام عمر بن الخطاب، ذكرت في القرآن الكريم. (معجم البلدان: ١٢٧/٥).

(٥) سورية: موضع بالشام بين خناصرة وسلمية (معجم البلدان: ٢٨٠/٣).

وقد انتشرت، في العصر العباسي، العلوم العقلية كالترجمة، ومعاهد الدرس، والثقافة، والتاريخ، والجغرافية، وعلوم النجوم، والرياضيات، والكيمياء، والطب. فقد نتج عن حركة النقل والتعريف اتساع الثقافة بما دخل عليها من ثقافات الأمم ومناحي تفكيرها، وإطلاع العرب على علوم كانوا في حاجة إليها كالرياضيات والطب، وأتاحت فرصة باكرة للعرب المسلمين مكنتهم من أن يؤدوا رسالتهم في تقدُّم الثقافة الإنسانية فارتقت الحضارة العربية الإسلامية في الحياة العملية العامة في البناء، وأسباب العيش في الزراعة والصناعة والأسفار والتطبيب. واغتنت اللغة العربية بالمصطلحات العلمية والتعابير الفلسفية[1].

العمارة:

ولد فن العمارة الإسلامية في عصر بني أمية، ولكنه سرعان ما نما وترعرع فكانت من آثار الطراز الأموي عمائر يبدو فيها أن المسلمين أفادوا من فتوحاتهم فانقسمت العمارة إلى عمارة مدن وعمارة دينية تتمثل في المساجد، وحربية تتمثل في الحصون، ووحدوا كثيراً من العناصر الفنية في أجزاء دولتهم وألفوا منها طرازاً ممتازاً، وانتشر عندهم فن الزخرفة الإسلامية بالنقوش الخطية العربية على الجدران.

وكان للخلفاء العباسيين ولوع شديد ببناء القصور الفخمة، فقد بنى أبو جعفر المنصور قصر الذهب في وسط مدينة بغداد.

وفي العصر العباسي الأول تقدم فن الزخرفة تقدماً عظيماً، وقد أصبحت القصور محلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج.

---

(١) الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل.

ومن أبرز المراكز الفكرية:

الكوفة: من أعظم مراكز العلم والسياسة والحرب في البلاد الإسلامية التي غدت قصبة العراق الأعلى. أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتجديد بنائها وسكنها علي بن أبي طالب وقد بنى الخلفاء المدن الكبرى كبغداد في عهد المنصور، وسامرا[1] والرصافة[2] والكرخ[3] وغيرها.

المبحث الرابع: الحياة الاجتماعية:

يقصد بالحياة الاجتماعية ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها، وما يتمتع بها كل منهم من الحرية، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء والأعياد والمواسم والولائم والحفلات، ووصف المنازل ومافيها من أثاث وطعام وشراب ولباس وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع.

لقد تعصَّب الأمويون للعرب ونظروا إلى الموالي ـ غير العرب ـ نظر السيد للمسود مما أثار روح القوميةفي نفوس هؤلاء الموالي فثاروا على الحكم الأموي وانضموا إلى الخارجين على بني أمية. وفي زمن العباسيين عاد التوازن بين العرب والفرس اجتماعياً، ولكن ظهور الأتراك منذ أيام المعتصم أوجد منافساً سيطر على الخلافة والحكم[4].

أما أهل الذمة، وهم النصارى واليهود، فقد تمتعوا بالحرية الدينية فقد تركهم العرب يدينون بما رضوا لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للمسلمين.

---

(١) سامرا: مدينة كانت بين بغداد وتكريت. وقيل سامراء بلد على دجْلة فوق بغداد فيها من قبور الخلفاء قبر الواثق وقبر المتوكل وغيرهما. (معجم البلدان: ٣/١٧٨).

(٢) الرَّصافة: مدينة بناها المنصور واستتم بناءها ابنه المهدي. عمل المهدي بها جامعاً كبيراً، وكان فراغ بنائها سنة ١٥٩هـ. (معجم البلدجان: ٣/٤٦).

(٣) الكرخ: أرض بالعراق. (معجم البلدان: ٤/٤٤٧).

(٤) الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل: ٣٦٩ .

وقد انقسم المتجمع الإسلامي إلى طبقات: طبقة الخلفاء وحاشيتهم، وطبقة العامة، وطبقة الموالي. فكانت لكل مجالسهم وطريقة في طعامهم ولباسهم وظروفهم الاجتماعية ومساكنهم.

مجالس الغناء والطرب:

انتشر في عهد الأمويين الغزل، وقد أخذ الأمويون والعباسيون من بعدهم مجالسهم عن الفرس وقد حل الغناء محل الشعر، إلا أن خلفاء بني أمية سليمان بن عبد الملك، وهشام، ومروان ابن محمد كانوا لا يظهرون للندماء، بل كان بينهم حجاب حتى لا يطلع الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب. وكان البعض الآخر من خلفاء بني أمية يظهرون للندماء والمغنين ولا يحفلون بإتيان حركات تثيرها نشوة الطرب في نفوسهم.

وفي عهد الخليفة الأموي الوليد الثاني كُلِف الناس بالموسيقى والغناء، وكانوا يسرفون في ذلك كل الإسراف، وينفقون ببذخ على المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الخليفة يدعوهم إلى دمشق من أقاصي البلاد.

وقد أثَّر تدفق طبقات المغنين المحترفين على دمشق[1] في أخلاق الناس وفي حياة المجتمع حتى دبَّ الترف في الدولة. ومن أشهر المغنين في هذا العصر طُوَيس مولى بني مخزوم عالم بأنساب أهل المدينة، وهو أول من غنَّى بالمدينة غناء يدخل في الإيقاع. ومنهم أبو مروان الغريض[2]، وكان من مولدي البربر ومن رجال الأدب إلا أن الغناء غلب عليه.

وكان للقيان أثر ملحوظ في تقدم الغناء في العصر الأموي. ومن الآلات التي انتشرت في ذلك العصر الصنج والطنبور والدريج وله أوتار كالطنبور والمزمار.

---

(١) دمشق: جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة، ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة، ونزاهة رقعة، وكثرة مياه، ووجود مآرب.

(٢) أبو مروان الغريض (...- نحو ٩٥هـ) عبد الملك، من أشهر المغنين في صدر الإسلام ومن أحذقهم في صناعة الغناء، كان يضرب بالعود، وينقر بالدف، ويوقع بالقضيب، ولُقِّب بالغريض لجماله ونضارة وجهه. (الأعلام: ١٥٦/٤).

أما العباسيون فقد انغمسوا في الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة، وحفلت قصور الخلفاء ورجال الدولة بالمغنين والموسيقيين، وقد أخذ العباسيون نظام مجالسهم أيضاً عن الفرس. ولما قامت الدولة العباسية كان أبو العباس السفاح يظهر للندماء في مجلسه ثم احتجب عنهم، كما كان يُظْهِرُ سروره وابتهاجه لندمائه ومغنيه ويمنحهم العطايا والصلات. ولم يظهر أبو جعفر المنصور لنديم قط، وكان المهدي يسمع الغناء، وقد احتجب في أول خلافته عن الندماء عاماً كاملاً تشبهاً بأبيه المنصور ثم ظهر لندمائه وأجزل لهم العطايا والمنح[1].

قصور الخلفاء والأمراء:

في هذا العصر لم يعد الخلفاء يهتمون بأن يؤموا الناس في الصلوات الخمس، واقتصروا على إمامتهم في صلاة الجمعة، وكثيراً ما كان بعض الخلفاء الأمويين لا يحضرون صلاة الجمعة بل ينيبون عنهم رئيس الحرس أو صاحب الشرطة.

وقد تشبّه خلفاء بني أمية بالملوك وأبهتهم، فكان قصر الخليفة في دمشق غاية في الأبهة[2].

الطعام:

كان الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك نهماً يتناول الفراريج بكمه، وكان للأكل مع الخلفاء والأمراء آداب مقررة فينبغي ألا ينبسط الشخص في الطعام لأن الأكل مع الملوك للشرف لا للشبع مع ما في الانبساط من الجرأة وسوء الأدب.

---

(١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن: ٥٣٣/١ . انظر الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل: ٣٧٨ .

(٢) البداية والنهاية: ٩٧/١٢ .

وقد عُني العباسيون بتنويع الطعام وكان أبو جعفر المنصور يكثر منه ولا يعمل بنصح الأطباء. ولم يقتصر إسراف العباسيين في الطعام على الخلفاء وحدهم، بل تعداهم إلى الأمراء وكبار رجال الدولة، وكان أهل بغداد يتفننون في الطعام ويسرفون في اجتلاب ألوانه في غير مواعيدها[١].

اللباس:

كان لانتشار النفوذ الفارسي في الدولة العباسية أثر كبير على ظهور الأزياء الفارسية في البلاط العباسي. وكان اللباس الفارسي لباس البلاط الرسمي. فقد قرر أبو جعفر المنصور لبس القلانس وهي القبعات السود الطويلة المخروطية الشكل، بصفة رسمية، كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب.

وفي العصر العباسي كان اللباس العادي للطبقة الراقية يشمل على سروالة[٢] فضفاضة وقميص[٣] ودراعة[٤] وسترة[٥] وقفطان[٦] وقباء[٧] وقلنسوة[٨].

أما لباس العامة فيشمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال.

وكان لباس الخليفة العباسي في المواكب القباء الأسود أو البنفسجي الذي يصل إلى الركبة وكان مفتوحاً عند الرقبة[٩].

---

(١) انظرالحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل: ٣٩٠-٣٩٣ .

(٢) سروالة: فارسية معربة. وسَرْوَلْتُه: ألبسته إياها فتسرول، وهو لباس يستر ما بين السرة والقدمين كالبنطال اليوم. (انظر القاموس المحيط، مادة: سراويل).

(٣) قميص: لباس يستر الكتفين إلى الوسط ولا يكون إلا من قطن. (انظر القاموس المحيط، مادة: قَمَصَ).

(٤) دَرَّاعة: قميص للرجل أو للمرأة ولا يكون إلا صوف. (انظر القاموس المحيط، مادة: دِرْع).

(٥) سَتْرَة: ما يستَر به. (القاموس المحيط، مادة: السِّتْرُ).

(٦) قفطان: نوع من أنواع الثياب.

(٧) قَبَاء: نوع من أنواع الثياب جمع أقْبية. (القاموس المحيط، مادة: قَبَاه).

(٨) قَلَنْسوة: من ملابس الرؤوس معروف وجمع القَلَنْسوة قَلانِس. (انظر لسان العرب، مادة: قلس).

(٩) انظر الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل: ٣٨٨ .

المرأة:

كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية فقد تدخل بعضهن في شؤون الدولة كالخيزران زوج الخليفة المهدي. وكذلك ساهمت في الحروب، وبلغت مبلغاً عظيماً من الثقافة حتى كانت تنظم الشعر وتناظر الرجل. وقد أولع الناس وخاصة الخلفاء باتخاذ الإماء من غير العرب.

أنواع التسلية:

شغل العرب أوقات فراغهم ببعض ضروب التسلية كالصيد وسباق الخيل الذي كان أهم تسلية للشعب على اختلاف طبقاته، ويقال إن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك هو أول من أقام حلبات السباق. وكانت الأميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق[1].

وفي العصر العباسي، كان الناس يقضون أوقات فراغهم في سماع الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث، وكانوا يتلهون بلعبة الشطرنج، والرمي بالنشاب، والصيد بالبندق، وسباق الخيول، والتنس، والصيد، وكان النساء يمارسن الرمي بالسهام[2].

المبحث الخامس: الحياة الاقتصادية:

ازدادت في العصر العباسي الأول، موارد الدولة نتيجة إلى اهتمام الخلفاء بشؤون البلاد الاقتصادية، والعمل على تنمية مواردها، وعنايتهم بالزراعة والتجارة وغيرها من شؤون الاقتصاد والمال.

---

(١) مروج الذهب، المسعودي: ٣/١٨٨و ١٨٩ .

(٢) انظر الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل: ٣٨٤ .

الزراعة:

الزراعة أيام الأمويين: أمر معاوية بن أبي سفيان باستصلاح الأراضي البور، واهتم الأمويون بتجفيف المستنقعات بين البصرة والكوفة، وبنوا السدود في عسير، كسد عبد الله بن معاوية قرب الطائف، ونهر يزيد بن معاوية يسقي في مدينة دمشق أراضي مرتفعة واسعة يشهد على عناية الأمويين بزيادة الأراضي المزروعة[1].

الزراعة في أيام العباسيين: وجّه خلفاء العصر العباسي الأول عنايتهم إلى تشجيع الزراعة، فنشطوا في حفر الترع والمصارف وإقامة الجسور والقناطر والعمل على تحسين الأراضي الخصبة بين نهري دجلة والفرات وتنمية مواردها حتى قوي خصبها وكثرت فيها المزراع البساتين حتى عرفت بأرض السواد[2] لكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة. وقد عمل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور على تنظيم وسائل الإرواء بشق كثير من الجداول والترع.

وقد عُني خلفاء العصر العباسي الأول بالزراعة وفِلاحة البساتين التي قامت على دراسة عملية، بفضل انتشار المدارس الزراعية التي كان لها أثر كبير في إنارة عقول المسلمين فتوسعوا في البحث النظري ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النبات.

وسار الخلفاء العباسيون على سياسة حكيمة ترمي إلى عدم إرهاق المزارعين بالضرائب، وراعوا خفض الضرائب إذا قلّ المحصول لسبب من الأسباب.

---

(١)الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل: ٢٣٠ .

(٢) السواد: رستاق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب، سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار. (معجم البلدان: ٢٧٢/٣).

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة وسرعان ما عُمِّرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان[1].

الصناعة:

عني الخلفاء العباسيون باستعمال موارد الثروة المعدنية، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس[2] وخراسان كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز وغيرها من الموارد. وتقدمت صناعة السفن وتعددت أنواعها، وتقدَّم التصنيع الحربي فحسنواالمجانيق والدبابات. وقد عني بصناعة الصابون والزجاج والورق والحرير والمنسوجات والخزف. وكان ببغداد عدد كبير من دور الصناعة وكان لكل حرفة سوق. واشتهرت بغداد بالصياغة، واشتهرت مصر بصناعة المعادن والمراكب النيلية والسفن[3].

التجارة:

سهل الخلفاء العباسيون سبل التجارة فأقاموا الآبار والمحاط في طريق القوافل، وأنشؤوا المنائر في الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار؛ وكان لذلك أثر بعيد في نشاط التجارة الخارجية والداخلية.

وقد شجَّع الخلفاء العباسيون التجارة تشجيعاً غير مباشر بما أدخلوا من مظاهر الترف إلى بلاطهم؛ وذلك بتمهيد الطرق وتأسيس مدينة بغداد، فبعد أن أسس العباسيون مدينة بغداد على شاطئ دجلة، حفروا قناة للملاحة.

---

(١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن: ٢/٣٠٣ .

(٢) فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح فتحها العرب، وبنوا حي فارس يسكنه الأكراد. (معجم البلدان: ٤/٢٢٧).

(٣) انظر الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل: ٢٣٣-٢٣٤ .

لقد كان لعناية الخلفاء العباسيين بالتجارة وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها البرية والبحرية أثر كبير في ترقية التجارة التي تقوم على تبادل المحاصيل، كما مهد السبيل أمام الكاشفين والرحالة فكثرت رحلاتهم في هذا العصر كثرة تدعو إلى الإعجاب[1].

(١) انظر المرجع السابق: ٢٣٥-٢٣٦ .